شرعت في مناداة الناس الى مساعدتك على انشاء هذه المدرسة الى الآن فلها كما لك الفضل الاكبر علينا حتى في هذا العمل الذي كنا نود ان نكون مستقلين فيهِ

وانتم أيها السادة رئيس المدرسة واساتذتها وعمدتها لقد تفضلتم علينا فسمحتم لنا ان نضع هذا التمثال في حماكم فاقبلوهُ منا واحتفظوا بهِ كرماً منكم واكدوا ان لكم كما لرئيسنا الاول مئات من التماثيل مبثوثة في اقطار المسكونة وهم رسائل حية لكم معروفة ومقروءة من جميع الناس وبهم نفخركم الاكبر ترونهم في معترك الحياة يذللون الصعاب بالقوى العقلية والادبية التي استمدوها منكم . وغاية ما نرجوهُ الآن ان يكون عملنا هذا مقبولاً لديكم ولدى جمهور الفضلاء الذين تكرموا فشرفوا هذا الاحتفال نسأل الله ان يرسخ فينا خلق الاعتراف بالجميل والشكر على المعروف حتى نتبارى فيهِ ونتنافس لا زالت معاهد العلم سماء وانتم شموسها . (يعقوب صروف)

اما الخطبة التي خطبها المندوب فكانت بالانكليزية وسننشر تعريبها في جزء تالٍ.

فضل الشرق على الغرب

لم يقم حتى الآن دليل علمي على وطن الانسان الاول ولكن الادلة متوفرة على ان العمران ابتدأ في المشرق واتصل منهُ الى المغرب ودعائم هذا العمران كثيرة اكبرها ما يلي

اولاً الدين — الاديان المشهورة التي لها الآن الشأن الاكبر في مصالح الامم اليهودية والمسيحية والاسلامية ابتدأت كلها في الشرق . ومهما حاول اهالي اوربا ان يغمطوا فضل الشرق عليهم فلا يستطيعون ان ينكروا فضل الديانة المسيحية في تهذيب اخلاقهم وتشييد دعائم عمرانهم

ثانياً الكتابة — رأى بعضهم من النقوش التي اكتشفت حديثاً في جزيرة كريت ما استدلَّ منهُ على ان الكريتيين استنبطوا الكتابة بالحروف الهجائية قبل غيرهم لكن العلماء المحققين ينكرون ذلك . ولا يزال جمهورهم يعتقد ان الفينيقيين اهالي سورية هم اول من استنبط الكتابة بالحروف الهجائية . وهب ان الفينيقيين لم يستنبطوها فهم الذين نقلوها الى اوربا وعلَّموا اليونان استعمالها ويكاد ذلك يكون امرًا تاريخيًا ولا تزال اسماء الحروف اليونانية دليلاً على اصلها السامي

ثالثاً الارقام الهندية — هذه الارقام اعترف العرب انهم اقتبسوها من الهنود كما يدل اسمها العربي واعترف الافرنج انهم اقتبسوها من العرب كما يدل اسمها في لغاتهم ولا مجال للشك

في هذين الامرين . ونوائد العلوم الحسابية وكل ما بني عليها اعظم من ان تذكر واكثر من ان تحصى . انزع من العمران الحروف الهجائية والارقام العددية وما بني عليها فلا يبقى منهُ ربعهُ . واقدم ما وجد من الكتابات العربية وفيهِ ارقام هندية قراطيس من البردي وجدت حديثاً في الفيوم تاريخها سنة ٨٧٣ للميلاد

رابعاً الحك المغنطيسي — ان جانباً كبيراً من العمران ومن تعمير المسكونة سببهُ سهولة السفر بحراً وللحك المغنطيسي اليد الطولى في ذلك . ولقد كان الحك معروفاً ومستعملاً عند الصينيين في اوائل القرن الثاني من التاريخ المسيحي واستعملهُ العرب في اواسط القرن التاسع

خامساً البارود — لا يرتقي العمران الاَّ في زمن السلم ولا يدوم السلم الاَّ اذا قويت معدات الحرب وخيف منها ولقد كان لاستعمال البارود اليد الطولى في تقليل الحروب وتقصير مددها واطالة ازمنة السلم . والادلة متوفرة على ان الصينيين استعملوا البارود في اواسط القرن الثالث عشر وان العرب تعلموا عملهُ منهم في ذلك الحين فسموا ملح البارود ثلج الصين . قال ابن البيطار ثلج الصين هو البارود المعروف بزهرة حجر اسيوس وقال في كلمة اسيوس هو ثلج الصين عند القدماء من اطباء مصر ويعرفهُ عامَّة المغرب واطباؤها بالبارود . وذكر حسن الرماح مقذوفات البارود في كتابهِ الذي الفهُ بين سنة ١٢٧٥ و ١٢٩٥ للميلاد فقال انها بيضة تخرج وتحرق

سادساً الطباعة — لا مشاحة ان الطباعة من انفع المخترعات للعمران ان لم تكن انفعها كلها ولها اساسان لاغنى لها عنهما الاول استنباط الحروف الهجائية والثاني استنباط الورق والاَّ فالطباعة نفسها اهتدى اليها الناس من عهد قديم منذ صنعوا الخواتم والختوم ولكنهم لم يتوسعوا فيها لانهم لم يكونوا قد اهتدوا الى اساسيها المهمين الحروف الهجائية المنقطعة والورق

اما الحروف الهجائية فقد تقدم ان الفضل للمشارقة في استنباطها وفي نقلها الى اوربا . والوراقة او عمل الورق الفضل في استنباطها للصينيين فانهم كانوا يكتبون اولاً على القنا كما كان المصريون يكتبون على البردي ثم صاروا يكتبون على الحرير وبخو سنة مئة للمسيح استنبط واحد منهم عمل الورق من القنَّب والخرق ولحاء الاشجار كما يُعمل اللبد من الصوف ورأوا فائدة هذا الاستنباط فاكرموا صاحبهُ ورفعوا قدرهُ

وذكر الثعالبي في كتاب لطائف المعارف ما نصهُ "ومن خصائص سمرقند الكواغيد التي عطَّلت قراطيس مصر والجلود التي كان الاوائل يكتبون فيها لانها احسن وانعم وارفق واوفق ولا تكون الاَّ بها وبالصين . ذكر صاحب كتاب المسالك والممالك انهُ وقع من الصين الى سمرقند في سبي سباهم زياد بن صالح من اتخذ الكواغيد بها ثم كثرت الصنعة واستمرَّت

العادة حتى صارت متجرًا لاهل سمرقند فعم خيرها والارتفاق بها في الآفاق "

ويظهر من كتب التاريخ العربية والصينية ان زياد بن صالح قهر الترك وانصارهم من الصين في شهر يوليو سنة ٧٥١ للمسيح وهي توافق اواخر سنة ١٣٣ للهجرة وعليه فقد اتصلت الوراقة من الصين الى ممالك العرب في اواسط القرن الثامن لليلاد

ويظهر مما رواه ابن خلدون في المقدمة انهُ لما كان الفضل بن يحيى البرمكي واليًا على خراسان عرف ان الصينيين يصنعون الورق في سمرقند فنقل صناعتهُ الى خراسان ومن ثم انتشرت الوراقة في ممالك المسلمين وكان الورق الخراساني يعمل من الكتان على ما جاء في كتاب الفهرست قال " والصين تكتب في الورق الصيني ويعمل من الحشيش واما الورق الخراساني فيعمل من الكتان ويقال انهُ حدث في ايام بني امية وقيل في ايام الدولة العباسية وقيل ان صناعًا من الصين عملوهُ بخراسان على مثال الورق الصيني " . ظهر بالبحث المكرسكوبي ان الورق المصنوع من الكتان اقدم من الورق المصنوع من القطن . وقد عثر بعض الاوربيين على رسالتين كتبتا سنة ٨٠٠ لليلاد على ورق صنع في بغداد . ولم يكد عمل الورق ينتشر في القطر المصري حتى اهمل عمل قراطيس البردي رويدًا رويدًا ولم يعد يصنع منها شيء بعد القرن العاشر ولكن لم يصل عمل الورق الى جنوبي اوربا الاَّ في القرن الثاني عشر وبلغ المانيا في القرن الرابع عشر

وانتقلت الطباعة من الشرق الى الغرب كما انتقلت الوراقة فان المصريين كانوا يطبعون النقوش على منسوجاتهم منذ القرن السادس . وكان الصينيون يطبعون على الورق منذ سنة ١٧٥ لليلاد وانتشرت الطباعة في بلاد الصين في القرن السادس للمسيح وكانت عن صفائح خشبية وامتدت منها الى بلاد اليابان وجاء في سجلات اليابان ان الملكة شوتوكو امرت بتوزيع مليون من الهياكل الخشبية الصغيرة وقد طبع على كلٍّ منها آية من كتاب البوذيين فمالا نربهاسا شترا وكان ذلك سنة ٧٦٤ للمسيح وتمَّ العمل بامرها سنة ٧٧٠ للمسيح . وقد وجد بعض هذه الهياكل الصغيرة ووجد فيها دروج عليها الكتابة المشار اليها بالحروف الصينية . ووجدت صفائح معدنية للطباعة تمتد في تاريخها الى سنة ٨١٦ للمسيح ووجد بعضهم كتابًا في الصينية طبع سنة ١٠٥٤ وفيه صورة المؤلف وصور اخرى . والظاهر ان العرب اقتبسوا صناعة الطباعة من الصينيين حال اتصالهم بهم فقد وجد في دفائن الفيوم ثلاثون صفحة عربية مطبوعة من القرن التاسع والعاشر لليلاد وفي بعضها حروف قبطية وفي بعضها اجزاء من القرآن دلالة على ان المسلمين لم يكونوا يأنفون من طبعهِ في المطابع حينئذٍ . ولم يكتفوا بذلك بل كانوا يطبعون نقود الورق ويتداولونها فقد

جاء في كتاب الروضتين في اخبار الدولتين لابي شامه انهُ "حضر جماعة من التجار (الى الملك العادل) وشكوا ان القراطيس كان ستون منها بدينار وتزيد وتنقص فيخسرون فسأل عن كيفية الحال فذكروا له ان عقد المعاملة على اسم الدينار ولا يرى الدينار في الوسط وانما يعدون القراطيس بالسعر تارة ستين بدينار وتارة سبعة وستين بدينار"

وظهر بعد البحث الدقيق ان اهالي كوريا اول من استنبط الطباعة بالحروف المنفصلة كما هو جار الآن فقد قال الصينيون ان حداداً منهم اسمهُ بي شونغ صنع حروفاً للطباعة من الخزف بين سنة ١٠٤١ و١٠٤٩ للميلاد ورأى بعض الباحثين في هذا الموضوع كتباً صينيَّة مطبوعة بحروف منفصلة منذ سنة ١٣١٧ ولا يعلم ما اذا كانت صينيَّة او كوريَّة ورأى كتباً اخرى كورية الاصل طبعت بحروف معدنية واحداً منها طبع سنة ١٤٠٩ وفيهِ وصف الطباعة بالحروف المنفصلة ويقال فيهِ ان ملك كوريا رأى ان الطباعة عن الصفائح الخشبية لا تفي بالمراد فامر بعمل حروف الطباعة من النحاس على نفقتهِ الخاصَّة وكان ذلك في اواخر سنة ١٤٠٣ واوائل سنة ١٤٠٤ ويختم هذا الفصل بالصلوات والابتهالات لنجاح هذا العمل

والظاهر ان العرب تعلموا الطباعة بالحروف المنفصلة من الصينيين ولكن لا دليل على ان الاوربيين تعلموها منهم والمرجح ان الاوربيين اتصلوا اليها من تلقاء انفسهم ولكن لو لم يتعلموا من العرب عمل الورق ما كان للطباعة شأن يذكر

وجملة القول ان الفضل لاهالي المشرق في دعائم العمران الدين والكتابة والارقام الهندية والحك المغنطيسي والبارود والوراقة والطباعة

الصور في الطباعة

عبَّر الناس عن معانيهم بالصور المرسومة فمتى عبَّروا عنها بالكلمات المكتوبة . ثم اختزلوا الصور فتولدت منها الكتابة بالكلمات اولاً ثم بالحروف . ولذلك تجد الصور في اقدم ما كتبهُ الناس او ارادوا التعبير بهِ عن اغراضهم بل تجدها بين الآثار التي بقيت من عهد سكَّان الكهوف الذين كانوا يصيدون الفيل في فيافي اوربا قبلما غمرها الجليد في العصر الجليدي الاخير وقرض الافيال منها ولعلَّ ذلك كان منذ اكثر من عشرة آلاف عام

وكان المصريون يجمعون بين التصوير والكتابة في كل نقوشهم القديمة والحديثة من قبل التاريخ المسيحي باربعة آلاف او خمسة آلاف سنة الى ما بعدهُ باربع مئة او خمس مئة سنة